الجدران الأربعة

بقلم: ثناء نجاتي عياش- الأردن

ما زلت كما أنت تحمل الجدران الأربعة فوق رأسك ، أينما حللت. كيف؟ ولماذا؟ ومتى ؟ وأين؟

أسئلة تحتاج إلى إجابة ، ربما تجيب يوما ، وتتخلص من جدرانك، وتتحرر من قيدك وترحل، أين الرحيل/ فأنت مرتحل منذ بادئ الأمر، أين سترحل ثانية؟

اسأل شخصا آخر ، سيقول لك إلى أين، أما أنا .. فلا أعرف متى وكيف؟.

لماذا الرحيل مرة أخرى؟ يجب العودة أولا ثم الرحيل ثانيا، وبما أنك لم تعد ، فأنت في رحيلك الأول مستمر، إلى أن تعود، وعليك التوقف أولا ، لأنه لا يوجد ثانيا.

ألم أقل لك ستبقى تحمل جدرانك الأربعة؟ ما زلت صغيرا تفكر في الموت والحلم والرحيل والعودة.. لماذا الموت؟ ولماذا الرحيل؟ يجب العودة والحلم.. تحلم ما أجمل الحلم!

في الماضي أخبرتني عن حلمك ، تعيده عليّ في اليوم ألف مرة ، إلى أن سخرت منك ومن حلمك ، يومها بكيت بكاءً مرا ، ولم ترد التوقف، كأنك انتظرت تلك اللحظة منذ زمن، ثم ذهبت ولم تعد إلى اليوم ، ولم تتفوه بكلمة واحدة ، ليتك قلتها، لكنك حملت جدرانك الأربعة ،، ومشيت مع الحلم والعودة والموت والرحيل إلى أين؟ لم تقل، نظرت نحوي، ثم قفلت مرتحلا، كأنك لم تعرف سوى الرحيل.

يوما ، صدفة رأيتك ،كنت قد تغيرت كثيرا ، ولكني عرفتك وعرفت جدرانك، ناديت .. ضاع صوتي.. ولم تجب! ولم تعرفني!! لا ، ربما نسيت اسمك، أو غيرته، توقفت قليلا ، نظرت إليّ ، ثم أشحت بوجهك عني... ثم تساقطت الجدران الأربعة: الحلم والعودة والرحيل وبقي الموت، كأنك انتظرت لحظة اللقاء لتقول وداعا، وحملت جسدك في قلبي ، وطوفت بك العواصم، وكل عاصمة كانت ترمينا بالحقيقة المرة، ونثرت رمادك في العيون وتبخرت مع الحلم ، فلم يعد هناك أنا ولا أنت، تخاطفت صورنا الأقدار.

أو ما كفاك الركض في طُرق ... تُفضي إلى الإسفاف والخسرِ؟
أم تحسبُ الإبداع في صُور ... منحلة تنأى عن الطهرِ؟
منذ ابتدا تاريخنا ولنا ... أدب سما في الشعر والنثرِ
ذابت قُلوب الصادقين به ... وتلألأت كالأنجم الزهرِ
فأتى إلينا روضةً عبقت ... بأريجها أو جدولاً يجري
فترشفت أنداءه مُهج ... ظمأى لفيض معينه البكرِ
فإذا بها نشوى مغردة ... قسماتها تفتر بالبشرِ
يا أيها المخدوع في زمن ... أمسى بُغاث الطير في الصدرِ
هبْ أنه هبتْ جحافله ... درعاً يصدُّ أسنة الغدرِ
أترد عمن ترتضي قدراً ... أم أنها ستفيء بالنصرِ؟
كلا! فإن الحق دولته ... أبقى وأقوى من يد الدهرِ
يا أيها المخدوع رايتنا ... بين الورى مرفوعة القدرِ
وإذا شدونا لم يكن عبثاً ... بل دعوة للنور والفجرِ
عجباً لمن يهذي ويحسبهُ ... من جهله أسمى من الشعرِ
فاقرأ روائع خُلدتْ وغدتْ ... وضاءة الإحساس والفكرِ
يفنى الفتى ويضمه جدث ... ويظل ما أبقاه من ذكرِ